

## جورجي حبيب حنانيا

### تاريخ أول صحيفة عربية في فلسطين (1908 – 1914)

ماري حنانيا\*

تستعيد هذه المقالة تاريخ جريدة "القدس" التي صدرت في مدينة القدس سنة 1908، فكانت أول صحيفة عربية تصدر في فلسطين بعد إعادة العمل بالدستور العثماني، وهي تؤرخ، بإيجاز، للأحوال العامة التي كانت سائدة في فلسطين قبيل صدور الدستور العثماني، لكنها تركز، في الدرجة الأولى، على جورجي حبيب حنانيا ودوره التأسيسي في كل من فن الطباعة والصحافة الفلسطينية. والمقالة عبارة عن سيرة مسهبة لجريدة "القدس" وصاحبها معاً، الأمر الذي يمكن اعتباره جزءاً من تاريخ فلسطين في الحقبة التي أعقبت الدستور العثماني، والتي سبقت قليلاً انهيار الدولة العثمانية وانحسار ظلها عن فلسطين وبلاد الشام في سنة 1917.

عندما أصدر جورجي حنانيا صحيفة "القدس"، في مدينة القدس قبل مئة عام (1908)، كانت الكلمة المطبوعة هي الوسيلة الوحيدة لنشر المعلومات في البلاد، لكن هذه الوسيلة اقتضت آنذاك على الكُتِب، وعلى مطبوعات تخدم أهدافاً محددة كالكتيبات الخاصة بالسواج، والكراسات الصادرة عن الدوائر الحكومية. وكانت السلطات العثمانية، ولعدة أعوام قبل ذلك التاريخ، تحكم الأقاليم الخاضعة لها حكماً استبدادياً (وكانت فلسطين، وهو الاسم الشائع لقضاء القدس في الإمبراطورية العثمانية، ضمن تلك الأقاليم)، وتفرض رقابة صارمة على المطبوعات. وفي سنة 1908، انتهت مرحلة القمع، فأعدت الإمبراطورية العمل بالدستور، ورافق ذلك منح حرية التعبير لرعايا الإمبراطورية.

بدأ جورجي حنانيا العمل في مجال الطباعة في القدس القديمة في سنة 1894، وظل لبضعة أعوام يصدر مطبوعات بلغات متعددة قبل أن يتقدم بطلب الحصول على تصريح بإصدار صحيفة باللغة العربية. لكن التصريح لم يصدر إلا بعد الإصلاح الدستوري العثماني في سنة 1908، فبدأت الصحيفة بالصدور بعد أن كان قد وفر له التأخير بمنح التصريح الوقت الكافي لتخطيط شكل الصحيفة ومضمونها. ولم تقتصر أهمية الصحيفة على كونها الصحيفة الفلسطينية الأولى الصادرة في تلك السنة، بل إن الناس رأوا فيها - ولعدة اعتبارات - صحيفة ذات رسالة. وكان جورجي يرى فيها مشروعاً وطنياً لا استثماراً يهدف إلى الربح.

ويرى كثيرون أن سنة 1908 تمثل نقطة انطلاق الصحافة في فلسطين. فبعد صدور "القدس" صدرت صحف أخرى، ويقال إن 15 تصريحاً لإصدار صحف ومجلات جرى منحها في تلك السنة فقط. وكان من الطبيعي أن تنوع الموضوعات التي تغطيها تلك الصحف، وأن يختلف تواتر صدورها وفترات استمرارها. لكن تلك المطبوعات كلها، والمطبوعات التي صدرت بعدها، توقفت مع اندلاع الحرب العالمية الأولى في سنة 1914، ولم تعد صحيفة جورجي حنانيا "القدس" إلى الصدور ثانية.

بينما كان جورجي يقف يوماً على سطح منزله في القدس القديمة، تنهأ إلى سمعه صوت عذب يدعو إلى الصلاة من مئذنة قريبة. وفي تلك الأيام، كان اختيار المؤذنين يجري على أساس عذوبة الصوت وقوته، وكان عليهم إعادة الأذان في عدة مواقع من على شرفة المئذنة بحيث يتمكن جميع من في المنطقة سماعه، بخلاف ما يجري اليوم، إذ يذاع الأذان المسجل في الوقت نفسه وفي الاتجاهات كافة. كان سماع صوت الأذان أمراً طبيعياً ومألوفاً في المدينة، لكن جورجي أخذ بجمال صوت المؤذن كثيراً، وهو ما دفعه إلى النزول إلى الشارع وملاقاة الرجل وهو يهيم بمغادرة المئذنة. حياّه جورجي وعبر له عن إعجابه بجمال صوته ودعاه إلى منزله حيث أقنعه، وهما يشربان القهوة، بأن يطيل الأذان عندما يواجه منزله. وافق المؤذن الذي أسعده أن يكون صوته مثار إعجاب رجل مسيحي، كما شعر جورجي بالسعادة لأنه سيتمتع بسماع الصوت العذب لفترة أطول يومياً.

تحكي هذه القصة التي تتناولها عائلة جورجي الكثير عن رائد إصدار الصحف في مدينة القدس في العقد الأول

من القرن العشرين، وعن عفويته وأصالته وطبيعته الودودة وتقديره للموسيقى وثقته بمكانته الاجتماعية. تعود جذور عائلة حنانيا إلى مدينة القدس لعدة أجيال، وهناك من يعتقد أن جذورها تمتد إلى بدايات الديانة المسيحية في المدينة، على الرغم من عدم وجود سجلات تؤرخ تلك الفترة، بل مجرد كتابات تضم اسم العائلة على أوانٍ لترقيد النبيذ والزيت تم اكتشافها في عدة مواقع أثرية. ومنذ أجيال عديدة، اختارت العائلة أن يكون لقبها "حبيب حنانيا"، وهو اسم أحد أجدادها، وذلك لتمييزها من بقية العائلات التي تحمل اسم حنانيا في القدس وفي مدن أخرى. واستخدم والد جورجي اللقب كما استخدمه جورجي وأولاده، لكن الأجيال اللاحقة أسقطت اسم "حبيب" من اللقب.

كان والد جورجي، عيسى حبيب حنانيا، العضو المسيحي الوحيد في المحكمة العليا في القدس، وكانت والدته كاتنغو (Katingo) يونانية من إستنبول، وهي ابنة مسؤول رفيع المستوى في الحكومة العثمانية. وقد تم ترتيب الزواج من جانب العائلتين. وتروي العائلة كيف ذهبت كاتنغو، التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها، لمقابلة السلطان مع والدها قبل مغادرتها إستنبول إلى القدس للزواج بعيسى، وفي أثناء وداع الفتاة للسلطان، وبعد أن قدمت مع والدها فروض الاحترام، أهدها السلطان خاتماً مرصعاً بماسة كبيرة. ولا بد من أن الخاتم بعث الطمأنينة في نفس المراهقة الصغيرة التي كانت زاهبة لتبدأ حياة جديدة بعيداً عن الوطن، ولتعدّ نفسها لتكون زوجة وأمّاً، ولم يظهر أي أثر للخاتم في ميراث العائلة، ومن الأرجح أن العائلة باعته خلال أعوام العسر التي مرت بها لاحقاً. لكن اللغة التي حملتها العروس اليونانية معها إلى القدس لازمت العائلة، فقد أضحت اليونانية اللغة الثانية لها، وكان أفرادها، جميعهم، يتكلمونها بطلاقة، لا أبناء كاتنغو فحسب، بل أحفادها أيضاً، بمن فيهم والدي وإخوته. وكان الكبار يتكلمون اليونانية عندما كانوا يرغبون في ألا يفهم، نحن الجيل الرابع، موضوع الحديث. وقد دفعنا ذلك أحياناً، أنا وأخي، إلى كتابة بعض الكلمات سراً ومن ثم الذهاب إلى منزل عمتي لسؤالها عن معناها، وهكذا تعلمنا بعض المفردات اليونانية.

وكان لجورجي شقيق يصغره سناً يدعى يعقوب، درس في معهد اللاهوت الأورثوذكسي اليوناني في القدس، فتعلم اللاتينية والعبرية إضافة إلى اللغات التي كان ملماً بها في الأصل، وبعد إنهاء دراسته ذهب إلى روسيا حيث عمل مدرساً للغة العبرية لابنة القيصر. وظلت العائلة لأعوام عديدة تتلقى من يعقوب هدايا قيّمة (ساعات ذهبية؛ جواهر ثمينة؛ أواني الشاي؛ أطعمة فاخرة). واستناداً إلى صورة في مجموعة العائلة تظهر يعقوب مع بعض أصدقائه الروس في القدس، يبدو أنه قام بزيارة الوطن مرة واحدة على الأقل خلال إقامته في سانت بطرسبرغ، لكن الاتصالات بينه وبين عائلته انقطعت تماماً لدى اندلاع الثورة الروسية وانتهاء حكم القيصر في سنة 1917. توفي يعقوب في روسيا خلال الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)، بحسب رواية أرملته الروسية التي كتبت إلى العائلة تعبر عن رغبتها في زيارة القدس، لكن، لأسباب لم تُعرف، لم تتحقق الزيارة، ولم تتلقَّ العائلة منها أي رسائل بعد ذلك.

كذلك كان لجورجي شقيقة تصغره بتسعة أعوام تدعى أيرين، تزوجت رجلاً من أسرة زكريا، وهي عائلة مقدسية عريقة، وتوفيت أيضاً خلال الحرب العالمية الأولى.

درس جورجي المرحلتين الابتدائية والثانوية في مدرسة المطران غوبات (Bishop Gobat) في القدس، ومن ثم تابع دراسته بنفسه، فكان يقرأ كل ما يقع تحت يده، وانتهى به الأمر، كما كان يقول، إلى إتقان سبع لغات ونصف لغة: العربية، والتركية، واليونانية، والفرنسية، والإنكليزية، والألمانية، والروسية، و"بعض العبرية".

تزوج جورجي أنيسة فرج التي تنتمي إلى عائلة مقدسية مرموقة، وكان لها شقيقة تدعى ماري تزوجت جريس العيسى الذي أصدر صحيفة في يافا تابع ثلاثة من أولاده إصدارها بعد وفاته. وأصبح أحد أبناء ماري، واسمه سعيد، من الشعراء المعروفين والمحترمين في الأردن. أمّا شقيقاً أنيسة، يعقوب وديمترى، فقد عملا في المجال المدني لا الأدبي، وأصبح يعقوب، وكان أحد القادة البارزين في الحركة الوطنية الفلسطينية خلال ثلاثينيات القرن العشرين، نائباً لمحافظة القدس، كما أصبح ديمترى محافظاً للخليل ومن ثم رام الله.

عاش جورجي وأنيسة في منزل في جوار المطبعة، وكانت أنيسة، وهي المرأة ذات الثقافة الرفيعة، على اطلاع بأسلوب الإدارة اليومي وكثيراً ما شاركت في العمل بالمطبعة. رزق الزوجان أربعة أطفال، ابنتان هما كاترين الابنة الكبرى وفَتِينِي، وولدان هما عيسى ودميان؛ وكان جورجي يفخر بأن ابنتيه تتعلمان في أرقى مدرسة للفتيات في القدس ويحرص على أن يصطحبهما مرافق لحمل الكتب، ومن الأرجح أن الوالدان لم يحتاجا إلى حماية من هذا النوع عند التحاقهما بالمدرسة.

ومما لا شك فيه أن حيازة جورجي مطبعة في ذلك الوقت المبكر، وجهوده المتواصلة التي تكلفت بالنجاح لإصدار صحيفة، يشيران إلى أنه كان رجلاً نذر حياته للكلمة المكتوبة. فقد كان عميق الإيمان بفائدة الكلمة المكتوبة للمجتمع، ويتضح ذلك من المقالات الافتتاحية في بعض الأعداد التي قرأتها من صحيفة "القدس"، كما كان يرى، مع آخرين غيره، أنه لا يمكن القيام بكثير لتشجيع التعليم والثقافة في فلسطين ما لم تتحرر البلد من الحكم العثماني، ولهذا شكّلوا جمعية سرية أطلقوا عليها اسم "فلسطين الفتاة" بهدف السعي لإيجاد فلسطين "فتية" مستنيرة وحرّة. ومع أن التوجه الأصلي للجمعية كان ذا طبيعة تعليمية ثقافية، فإنها طورت، من دون شك، بعض التوجهات ذات الطبيعة السياسية. وأدى انكشاف عضوية جورجي في الجمعية إلى إثارة سخط السلطات العثمانية، وهو ما دفعه إلى مغادرة فلسطين في عجل في سنة 1914.

كان جورجي، من النواحي كلها، رجلاً تقياً يتردد إلى الكنيسة كل أحد، ويرتل بصوته العذب ضمن كورس الكنيسة باللغتين العربية واليونانية، وكانت الموسيقى تشكل جزءاً من حياته اليومية، وكان يحب العزف على الماندولين على الرغم من وجود آلات موسيقية أخرى في المنزل. وبمرور الوقت، وبعد وفاته بفترة طويلة، أضحت الماندولين الآلة الموسيقية الأثيرة لدى أولاده وأحفاده، فقد كان والدي وعمتي يعزفان على آلتيهما معاً في المناسبات العائلية. ولم أحاول أنا تعلم العزف بخلاف إخوتي وأحد أبناء عمومتي، بل إن أحدهم تابع دراسة عزف الموسيقى الكلاسيكية على الماندولين خلال أعوام دراسته الجامعية.

وكان جورجي يولي مظهره عناية خاصة ويهتم دوماً بأناقته وهندامه، كما كان شخصاً مرحاً يتمتع بروح الدعابة. وعلى الرغم من العفوية التي اتسمت بها تصرفاته، فإن التقيد ببعض الشكليات كثيراً ما أشعره بالرضا. وكان يوم دفع الأجور الأسبوعية لعمال المطبعة إحدى تلك المناسبات، فقد حرص جورجي عند إعطاء كل عامل راتبه على تذكيره بوجوب الذهاب إلى ربة المنزل، أنيسة، لتقديم الشكر لها أيضاً.

## الأعوام الأخيرة

في سنة 1914، وكانت الصحيفة في عامها السادس، وضع جورجي خطة طموحة لتوسيع الصحيفة وتطويرها، وشاركه العمال مشاعر الحماسة والتربح. فقد رتب أمر شراء آلة طباعة حديثة مع بوليصة تأمين عليها، واشترى أكداً من الورق من الأنواع كلها للوفاء بحاجاته المستقبلية، كما رهن آلات المطبعة القديمة وموادها للحصول على قرض لتغطية التكاليف. لكن الجو السياسي المتوتر آنذاك كان يعاكس مشاريع جورجي، إذ تباطأت وتيرة العمل مع قرع طبول الحرب المقبلة، وعندما عجز عن دفع أقساط القرض المتوالية تبعاً ما عاد هناك بدءاً من إشهار إفلاسه. وكانت ابنتاه تزوجتا، لكن كان عليه إعالة أنيسة والصبيين الصغيرين، فقرر السفر إلى الإسكندرية في مصر طلباً للمساعدة من أصدقائه هناك. ولا شك في أن الوضع المالي المتردي وسفر جورجي كانا شديدي الوطأة على العائلة، لهذا قررت أنيسة إدارة العمل في المطبعة، لكنها لم تستطع الاستمرار طويلاً، وما لبث أن نشر في "الجريدة الرسمية" إعلان صادر عن البنك الألماني في فلسطين يفيد بأن آلات المطبعة ستعرض للبيع بالمزاد العلني لأن المالك تخلف عن سداد أقساط القرض. حزمت أنيسة والصبيان أمتعتهم وأوراق المطبعة ووثائقها، وانتقلوا للعيش في منزل صغير في جوار منزل الابنة الكبرى كاترين.

وتروي ابنة عمتي هنرييتا سكسك فراج أنها عثرت مصادفة على بعض أوراق المطبعة هي عبارة عن بطاقات خالية من الكتابة، وموشاة حوافها برسوم نافرة (بعضها لورود وبعضها الآخر لزهور البانسيه)، وكانت معدة لتطبع عليها عبارات التهئة والتحيات. وكانت العائلة في الماضي عرضت هذه البطاقات للبيع، وسرعان ما تسابق إلى شرائها الجنود المارون بالمدينة في أثناء الحرب بحيث قررت أنيسة الاحتفاظ بمجموعة منها كذكرى للأيام الخوالي. وبعد عدة أعوام، عثرت هنرييتا على المجموعة وسحرتها جمال البطاقات. وعلى الرغم من عدم اعترافها بذلك، فلا بد من أن تلك البطاقات الموشاة بالزهور ألهمتها فكرة البطاقات التهئة البديعة التي تحمل زهوراً مجففة من الأرض المقدسة، والتي تقوم بتصميمها منذ سنوات، وتباع هذه البطاقات حالياً لمصلحة جمعية خيرية، هي "البيوت الأربعة للرحمة" التي أنشأتها والدتها كاترين في سنة 1940، والتي تعمل فيها هنرييتا حالياً. عندما انتقلت العائلة للعيش في منزل صغير، كان عيسى مراهقاً، ودميان صبياً بين العاشرة والثانية عشرة من عمره، يمضي وقته باللعب بالصناديق وأكداً الورق التي أحضرتها العائلة من المطبعة. بعد أعوام من نشوب الحرب، عثر هذا الأخير في أثناء اللعب بأكداً الورق على مغلف يحمل حروفاً مطبوعة بلغة أجنبية هي "CREDIT FONCIE"، وكان يتعلم الفرنسية في المدرسة، فقرر التباهي بمعرفته اللغة أمام والدته بقراءة

الحروف أمامها. وما إن رأت أنيسة المغلف حتى أدركت للتو ما هو. كان "CREDIT FONCIE" هو اسم الشركة التي أمّن فيها جورجي على المطبعة، وكان المغلف يحوي وثائق التأمين. ولم تُضَع أنيسة وقتاً فقدت الطلب وتم دفع مبلغ التأمين، وتحسن مستوى معيشة عائلة جورجي بعد أعوام من المعاناة عاشت خلالها على دخيل شحيح.

وقد يغرينا ذلك بالتساؤل عن السبب الذي منع جورجي من إحضار وثائق التأمين من المطبعة كي تحتفظ بها زوجته، لكن علينا ألا ننسى هنا أنه غادر البلد فجأة، وبعد مغادرته أصبح التواصل مستحيلاً بين سكان فلسطين التي كانت ترزح تحت نير الحكم العثماني، وبين سكان مصر التي كانت خاضعة للحكم البريطاني في وقت استعرت فيه الحرب. وحتى لو كان ينوي إرسال نقود من مصر إلى فلسطين، فلا بد من أنه اكتشف سريعاً استحالة ذلك.

عندما وصل جورجي إلى الإسكندرية رحب به صديقه بطريك الأورثوذكس وقدم له كل ما يحتاج إليه من الدعم، كما قدّمه إلى العديد من الكتّاب والباحثين في المدينة، فاستقر فيها وشارك في الأنشطة الثقافية المتعددة الموجودة هناك. بالإضافة إلى ذلك، تابع العمل بمهنته، وكان يصدر تقويمياً سنوياً عنوانه: "النتيجة القدسية لأبناء كنيسة الروم الأورثوذكسية"، كما عمل مع شخص يدعى الأب حزبون في وضع قاموس، وبدأ بدراسة تاريخ الكنيسة الأورثوذكسية. ولم يتخلّ عن نشاطه في جمعية فلسطين الفتاة الإصلاحية، التي جاء معظم أعضائها إلى الإسكندرية، لكن ذلك كان لا يشبه في شيء عمله الريادي في فلسطين، البلد التي أحبها والتي كان يأمل بأن يشكل عمله فيها مساهمة مهمة للوصول إلى مجتمع أفضل وأكثر ثقافة. ولا بد من أن تلك الأفكار أثقلت روحه بالأسى، فكل من كان يعرفه قبل تلك المرحلة لاحظ أنه شاخ خلال عامين فقط.

غمرت البهجة قلب جورجي عندما وردت أخبار تحرر البلد الحبيب من الحكم العثماني، وفي مقدمة كتبها للتقويم الذي كان يعدّه في سنة 1918، رحب بأخبار انتهاء الحرب وباستيلاء البريطانيين على القدس، كما عبر عن أمله ببقاء بوابات المدينة المقدسة مفتوحة إلى الأبد، وبعدم نشوب حروب أخرى في المستقبل. وعلى الرغم من إبدائه الرغبة في العودة إلى القدس فور الانتهاء من بعض الأعمال التي بدأها في مصر، وحالما يتيسر السفر عبر صحراء سيناء، لم يكن مقدراً له رؤية عائلته ثانية. فبعد عامين توفي في إثر نوبة قلبية عن عمر ناهز السادسة والخمسين في منزله بالإسكندرية في مصر.

ومن الطبيعي أن نتساءل هنا عن سبب عدم عودة جورجي إلى القدس مباشرة، فقد كان مضى عامان تقريباً على انتهاء الحرب، والمفروض أن الفرصة كانت سانحة آنذاك. ربما يعود السبب جزئياً إلى شعوره بعدم وجود عمل لديه في القدس ينتظر من يتابعه، أو معارف في الحكومة يستأنف علاقاته بهم بعد خسارته المطبعة وبعد ظهور نظام سياسي جديد، في حين أن نشاطاته في مجال الأبحاث في الإسكندرية كانت قطعت شوطاً بعيداً. لكن ذلك لا يقدم تفسيراً كاملاً، فجورجي كان رجلاً شديداً الإباء، ولا بد من أنه كان يتفادى مواجهة مجتمع قد يركز أنظاره على فشله الآن بعدما كان يعتبره زعيماً فيما مضى. وفي إمكاننا أن نتخيل بسهولة أنه كان يعتبر ذلك أمراً مهيناً بالنسبة إليه، ومحرراً بالنسبة إلى عائلته، وبالتالي، اختار مساراً آخر لحياته. فبعد تمضية أربعة أعوام في الإسكندرية، كان أصبح عضواً فاعلاً في المجتمع الثقافي الذي كان يستمتع بكونه جزءاً منه، وعندما علم أن عائلته في القدس خرجت سالمة من الحرب، وأنها تتدبر أمور معيشتها جيداً من دونه، قرر الإبقاء على الوضع القائم.

كانت أنيسة، في تلك الأثناء، تعيش حياة رغبة مع ابنيها وعائلتيهما في القدس القديمة، في منزل قريب من منزل ابنتها كاترين وعائلتها، ولم يكن يمر يوم من دون أن تجتمع العائلة إلى حين وفاة أنيسة في سنة 1936. لا أحمل عن أنيسة سوى ذكريات قليلة مبهمّة: أكوام الكتب الجاثمة قرب سريرها؛ سيل لا يعرف حداً من الحكايات التي كانت تقصها علينا بهدوء وبصوت مؤثر كي تسلينا عندما كنا أطفالاً نتحلق حولها مأخوذين؛ صوت جرس الباب الذي لا يهدأ معلناً قدوم الأصدقاء أو الأقارب للزيارة؛ عبير القهوة الذكي الذي لا يقاوم وصحن البسكويت الكبير الجاهز أبداً لحظة قدوم الضيوف؛ زيارات المطران ورجال الدين المتكررة وحديثهم معها باليونانية لفترات كانت تبدو لنا ساعات طويلاً لأننا لم نكن نفهم ما يُقال؛ أطباق بقايا الطعام التي كانت تحرص على إفرادها للمتسولين؛ طريقتها في تسخين جبنة "الطوم" فوق الموقد عند تناولها الفطور؛ مطبخها الصغير الخاص في القبو حيث كانت تعد لنفسها الوجبات الخاصة خلال موسم الصوم الأورثوذكسي؛ إلخ.

وكثيراً ما قيل لي إن أنيسة كانت مولعة بالثياب الأنيقة والجواهر الثمينة، لكنني لا أعتقد أنها كانت، عندما عرفتها، تشعر في قرارة نفسها بالحنين إلى تلك الأمور. ما أتذكره هو أنها كانت سيدة قنوعة، قديرة، عذبة المعش، محبوبة من عائلتها الكبيرة وأصدقائها الكثر، وأنها كانت تدير بكل اقتدار منزلاً لا يعرف الهدوء؛ وأسترجع الآن

بوضوح ذلك الإحساس بالخواء الذي غلّف البيت والعائلة برمتها بعد وفاة أنيسة.

## مطبعة حنانيا

في العدد الأول من صحيفة "القدس"، يتحدث جورجى عن الدافع الذي دعاه إلى إنشاء دار طباعة. ففي ذلك الوقت كان هناك عدة مطابع ضخمة في الأديرة ومقار البعثات التبشيرية، وكانت تطبع مواداً تهم أفراد طوائفها. يقول جورجى:

ثم لما كانت بلدتنا القدس مثل غيرها متعطشة إلى العلوم والمعارف التي نضب معينها منذ أجيال طوال وكانت هذه لا تنشر وتعمم إلا بواسطة المطابع وكانت كل مطابع القدس دينية محضة تشتغل كل واحدة منها لطائفها مست الحاجة إلى تأسيس مطبعة تزرع بذار الإخاء وتعامل الجميع على السواء غايتها خدمة الوطن لا تختص بفريق دون آخر. ولكن هذا الأمر كان صعباً لما كان يحول دونه من الموانع والعثرات التي كان يقف الاستبداد في سبيل تذليلها وإزالتها. ولما كنت ممن مارسوا هذه الصناعة دفعتني النفس أن أُجرب القيام بهذا الواجب على ثقله وصعوبته ووعورة مسلكه وبعد تناوله.

ويتضح من كتابات جورجى الأخرى أن "الموانع والعثرات" المشار إليها تتمثل في الاستخفاف الكامل الذي كانت الحكومة العثمانية، قبل سنة 1908، تبديه إزاء الإجراءات القانونية، إضافة إلى معاملتها المتقلبة للشعوب الخاضعة لها.

واعتقد أن المطبعة في تلك الأيام لم تتعد كونها نسخة أكثر بدائية من المطبعة التي عرفتها في بيروت في أربعينيات القرن العشرين. فعندما كنت رئيسة تحرير مجلة للخريجين، قمت بزيارات عديدة للمطبعة ورأيت العمال في أثناء قيامهم بعملهم. وإذا كان القارئ الشاب لا يحمل أي تصور بشأن صعوبة ودقة العمل اللذين كان يتطلبهما طبع صفحة في تلك الأيام، فسأقدم في المقطع التالي وصفاً لكيفية العمل.

كان طبع الصفحة يتطلب تركيب نسخة مطابقة للنص حرفاً بحرف على "صفحة الطباعة" (وهي عبارة عن علبة غائرة العمق بقياس الصفحة المطلوبة مقسّمة إلى صفوف متوازية بحسب الأسطر المطلوبة). ولوضع كل حرف، يختار عامل التنضيد الحرف الطباعي (وهو ختم صغير للحرف مستطيل الشكل) من علبة الحروف ويثبتته بعناية على الصف الملائم في صفحة الطباعة. وعندما يتم إعداد الصفحة بالكامل، تُطلى الصفحة بالحبر وتنسخ صورة عنها على الورق.

ويعتبر اختيار الحروف المطبعية لإعداد الصفحة من أشق الأعمال. ففي مطبعة حنانيا، على سبيل المثال، كان على عامل التنضيد معرفة محتويات 340 علبة من حروف الطباعة ليتمكن من الاختيار بشكل صحيح في كل خطوة من سير العملية. وبالتالي، لم يكن من المستغرب أن يحصل عمال التنضيد على أجور عالية.

بدأ جورجى حنانيا، قبل شراء مطبعته الخاصة، باستيراد ما سماه "حروفاً" أجنبية على أحدث طراز، وذات تصميم بديع (والغالب أنها كانت حروفاً مطبعية فرنسية وروسية)، وصار يستخدمها لطبع مواد عن طريق آلات طباعة كان يستأجرها من مالكيها. وكانت المادة المطبوعة موجهة إلى السواح الذين كانوا يأتون إلى المدينة بأعداد كبيرة في موسم عيد الفصح من كل عام، وبالتالي لم تكن تلك "الحروف" الجميلة تُستخدم لأكثر من ثلاثة أشهر كل عام. بعد ذلك قام جورجى باستيراد حروف طباعة عربية لكنه حرص على استخدامها في دور طباعة لم تكن اللغة العربية معروفة لديها، وحيث كان يُعتقد أن الحروف العربية هي تركية (لأن اللغة التركية كانت آنذاك تُكتب بالأحرف العربية)، وبذلك تمكن من تفادي الحظر الذي تفرضه الحكومة على طبع مواد باللغة العربية قبل الحصول على تصريح خاص. واستمر الأمر على هذا المنوال لعام تقريباً قبل أن تكتشف السلطات الأمر وتوقف معظم نشاطاته في مجال الطباعة. لكنه كان يقدم خدمات للحكومة تتمثل في طباعة استمارات وكتيبات متعددة لاستخدامها في الدوائر الرسمية، وشاء حسن طالعه أن يكون أنهى لتوه طباعة كتاب لشخص يصفه بأنه مسؤول حكومي مرموق ذو نفوذ. ويبدو أن ذلك أقنع السلطات بالتغاضي عن نشاطه، وسمح له بالاستمرار في عمله بانتظار التصريح الذي صدر بعد ثلاثة أعوام، أي في سنة 1898.

كان جورجى، خلال الأعوام التي سبقت إصدار التصريح، يعمل في مطابع الآخرين نهاراً، وفي منزله مساءً. وبعد حصوله على التصريح اشترى آلة طباعة قديمة، ونقل مجموعته من حروف الطباعة والمواد الأخرى إلى مبنى جديد، وأصبح ناشراً مستقلاً. كانت الآلة الأولى طابعة صغيرة تُشغّل بالقدم، ونظراً إلى أنه كان يتوقع الحصول على تصريح بإصدار الصحيفة، فإنه سرعان ما استورد طابعة أوروبية ضخمة تعمل بالوقود.

لكن، لم يخل الأمر من بعض الصعوبات. كان جورجى يشير إلى تلك المرحلة من الحكم العثماني باسم "عهد الاستبداد"، إذ لم يكن هناك أي قواعد للحكم، وكان الناس مجرد ضحايا لنزوات أصحاب السلطة وأهوائهم. فالسلطان، وبعد عشرين عاماً من الحكم شعر خلالها بأن مقاطعات عديدة بدأت تتفكك من قبضة إمبراطوريته، حلّ البرلمان وأعلن نفسه حاكماً مطلقاً. لكن الوضع تغير فيما بعد عندما اندلعت ثورة شعبية في سنة 1908، فأعيد تشكيل البرلمان وصار للإمبراطورية حكومة دستورية. وكان التعامل مع مسؤولي الحكومة، حتى سنة 1908، يُعتبر جهداً عبثياً. فقد كان منحه وزارة التعليم حق الإشراف على المطابع كلها ومراقبة المواد المطبوعة، يعني إضافة عبء جديد مضمّن إلى الجهود اليومية التي يبذلها الناشر. كما برزت عقبة أخرى تمثلت في تكليف مطبعة جورجى حنانيا، ابتداءً من سنة 1903، بطبع "الجريدة الرسمية" الحكومية الأسبوعية باللغتين العربية والتركية، وهو ما جعل المسؤولين الحكوميون يقومون بزيارات مفاجئة لمبنى المطبعة، الأمر الذي أدى إلى فتور حماسة الكتّاب الآخرين للتعامل معها. وهكذا، كان هناك أوقات يعمل فيها عمال التنضيد ليومين من أجل إصدار "الجريدة الرسمية"، ثم يظلون عاطلين عن العمل لحين تسليمهم عدد الأسبوع التالي. ومع أن تعاون جورجى مع السلطات كان كاملاً، إلا إنه كان أيضاً موضع اتهام بشأن "ميوله الأجنبية".

وعلى الرغم من تلك الصعوبات، تمكنت المطبعة من إصدار 281 كتاباً بلغات متعددة، بما فيها ذلك 83 كتاباً باللغة العربية. خلال الفترة 1899 - 1908. ولسوء الحظ، لم يبقَ من تلك الكتب سوى عناوينها، إذ لم يُعثَر على أثر لها، كما جاء في مقال نشره مؤخراً مركز العودة الفلسطيني (وهو مؤسسة مقرها المملكة المتحدة). وفضلاً عن الكتب، أصدرت المطبعة العديد من الاستثمارات والكراسات التي كانت تُستخدم في الدوائر الحكومية، علاوة على مواد سياحية. ولم يبصر العدد الأول من الصحيفة النور قبل أيلول/سبتمبر 1908.

### صحيفة القدس

خصص جورجى جزءاً لا يستهان به من افتتاحية العدد الأول من الصحيفة (الصادر في 18 أيلول/سبتمبر 1908) لرواية معاناته مع السلطات في أثناء محاولته الحصول على تصريح بإصدار الصحيفة. فروى أنه قدّم في سنة 1899 طلباً لإصدار صحيفة عربية تخدم البلد (وكان حذراً في تجنب استخدام كلمة "الأمة" فهذه الكلمة، التي تشير ضمناً إلى الأمة العربية، لها وقع الصاعقة في أذان مسؤولي الإدارة العثمانية المستبدة). وعندما ذهب إلى مقر الإدارة المحلية في القدس للاستعلام عن الطلب، قيل له إن الطلب ضاع، وإن عليه تقديم طلب آخر ما لبث أن ضاع بدوره، كما ضاع طلبان آخران قدمهما فيما بعد. قرر جورجى اللجوء إلى طريقة أخرى، فدخل غرفة كان يجتمع فيها أعضاء المجلس المحلي، وروى ما جرى معه لأحد الأعضاء ثم قال له: يبدو أن الحكومة تعتبرنا جميعاً أمواتاً. وبما أنكم أيها السادة تمثلون أشخاصاً لا يعتبرون في قيد الحياة، فلا حاجة بكم إذاً إلى الاجتماع! لماذا لا نذهب جميعاً وندفن أنفسنا؟ تأثر عضو المجلس بما سمع ووعده بالتحري مباشرة لدى مكتب المطبوعات وعاد يحمل اقتراحاً بتقديم طلب جديد. وهذا ما تم، وأعطى الطلب الخامس رقم 85.

مرت الأشهر وتلتها الأعوام ولم تتوقف خلالها فروع الحكومة "الاستبدادية" (قبل أن تتبنى تركيا الدستور) عن التحري عن مقدّم الطلب، وعن إرسال مفتشين على نحو مبالغ للتحقق من العمل في المطبعة. وفي كل مرة كان جورجى يتساءل إلى أن وصل الطلب، كان يقال له إن التصريح أت قريباً وإن عليه التحلي بالصبر. ويقول أحد المصادر إن جورجى لجأ إلى تقديم الرشوة بأمل الإسراع في الإجراءات، وبلغ مقدار ما قدمه من رشوى 200 عملة نابوليونية (Napoleons) (وهي ليرة ذهبية واحدة تعادل 20 فرنكاً فرنسياً، ولا شك في أن المبلغ كان كبيراً في تلك الأيام)، لكن من دون طائل. وكل ما قاله جورجى عن هذا الأمر في مقاله الافتتاحي ما فحواه أنه انتظر طويلاً بعد أن نفذت نقوده، لكنه لم يسمع من الشخص الذي كان يعتمد عليه سوى أنه يجب ألا يكون لوحاً.

عندما انتهى "عهد الاستبداد" بتأليف حكومة دستورية في تركيا في سنة 1908، استأنف جورجى جهده، فأرسل برقية إلى الجهة المعنية أرفق بها نسخة من الطلب رقم 85 الذي أهمل طوال الأعوام الثمانية، بالإضافة إلى الوثائق الأخرى الخاصة به. وسرعان ما صدر التصريح فبدأت الصحيفة تصدر مباشرة، وكل ذلك بعد اشهر فقط من إعلان الحكومة العثمانية الجديدة في تموز/يوليو 1908. وبدأ جورجى مقالته الافتتاحية الأولى بكلمتي "الحمد لله"، وعاود الشكر لله عدة مرات في المقالة التي شغلت صفحتين.

سُمح للصحيفة، المؤلفة من أربع صفحات، بالصدور مرتين في الأسبوع، يومي الثلاثاء والجمعة، وكان

جورجي هو المالك والناشر ورئيس التحرير. كان يزيّن الصحيفة شعار جميل هو تخطيط فني لكلمة "القدس" تعلوه ثلاث نجومات متصلة تحمل أسماء "حرية"، "مساواة"، "إخاء"، وهو شعار الثورة الشعبية التي أعادت العمل بالدستور. كما كُتِبَ بالفرنسية والعربية اسم الصحيفة ومعلومات عن المالك (جورج ع. حبيب حنانيا)، وقيمة الاشتراك السنوي في القدس وفي تركيا، أو "للأجانب"، وأسعار الإعلانات. وقد ذُكرت الأسعار بعملات متعددة: المجيدية التركية، والفرنك الفرنسي، والقرش المستخدم في فلسطين. لم يُحدّد سعر العدد، وهو ما يعني أن الصحيفة كانت متاحة فقط للمشاركين الذين كان يُطلب منهم الدفع مقدماً، وكان يُطبع من كل عدد 1500 نسخة.

واستناداً إلى المعلومات التي حصلت عليها من المصادر كلها التي استشرتها، كانت صحيفة "القدس" فعلاً أول صحيفة عربية خاصة في فلسطين (ويعتبر ذلك في العائلة أمراً مفروغاً منه). يقول محمد سليمان في كتابه "تاريخ الصحافة الفلسطينية" الصادر في سنة 1987، إنه قبل صدور صحيفة جورجي حنانيا كان هناك صحيفة حكومية شهرية واحدة فقط، هي "القدس الشريف"، كانت تصدرها الحكومة العثمانية من غير انتظام منذ سنة 1876، وباللغتين العربية والتركية. وبعد صدور صحيفة "القدس"، سرعان ما ظهرت صحيفة منافسة باسم "بشير فلسطين" استمر صدورهما فترة وجيزة، وكانت تدافع عن الكنيسة الأورثوذكسية اليونانية ضد تحدي الطائفة الأورثوذكسية العربية لسلطتها. لكن لا ذكر لهذه الصحيفة في مصادر أخرى، وفي رأبي أنها لم تستمر في الصدور فترة طويلة، أو أنها لم تكن متداولة على نطاق واسع، وقد يصدق الاحتمالان. ويشير يعقوب يهوشوا (Yehoshua) إلى أنه لدى سقوط الإمبراطورية العثمانية في سنة 1918، كانت 30 صحيفة عربية صدرت في فلسطين (في حيفا ويافا والقدس) لكن العديد منها لم يدم صدوره سوى بضعة أشهر أو عام، ولم يُعثر على أي نسخ من تلك الصحف. وفي إحدى المقالات الافتتاحية في سنة 1913، يقول جورجي إن أربع صحف أُجبرت على التوقف عن الصدور بعد مضي عام أو عامين على بدء ظهورها.

وصف جورجي صحيفته بأنها تعالج موضوعات "العلوم والآداب والمعارف"، والأمر الذي كان يحمل أهمية خاصة بالنسبة إليه، ولا سيما في البداية، واستناداً إلى سياسة التحرير التي ينتهجها كما وردت في العدد الأول، هو كيفية التغلب على المشكلات الناجمة عن أسلوب الحكم العثماني القديم. والواضح أنه كان يرى أن العلوم والآداب والمعارف لقيت إهمالاً شنيعاً خلال فترة الحكم القديم، وأن إحياءها يتطلب جهوداً محلية فاعلة، فدعا قراءه إلى المساهمة في الصحيفة بمواد "مفيدة" عن طريق إرسال المقالات والرسائل كي تنشر في الصحيفة، كما عبر عن ولائه للسلطان بأن أشار إلى الصحيفة بعبارة: مطبوعة عثمانية تدافع عن الحق هدفها خدمة الدولة بمنتهى الإخلاص.

كانت الصحيفة، على أي حال، تنشر كثيراً من أخبار الحكومة، كما حافظت على حيادها بين الخصومات التي كان مقدراً لها أن تنشأ بين الأحزاب السياسية المتعددة. وقد تمكن رئيس التحرير من تفادي الانحياز إلى أي من طرفي النزاع الذي استعر بين الطائفة الأورثوذكسية العربية، وبين العناصر اليونانية في الكنيسة الأورثوذكسية التي اتهمها العرب بالتسلط فيما يخص شؤون الطائفة، مع أنه، باعتباره رجلاً أورثوذكسياً عادياً مواظباً على التردد إلى الكنيسة، لا بد من أنه شعر بإغراء بالمشاركة في النزاع، ولا سيما أن كثيرين من أبناء الطائفة كانوا يعتبرونه من مؤيدي وجهة النظر اليونانية. والواقع أنه وافق على نشر أي أخبار أو تعليقات مرسلة إليه من أي من الطرفين، شرط أن يكون المقال موقّعاً ومكتوباً بلغة تلترم الحدود المقبولة من التهذيب، وخالياً من الشتائم والتشهير. ومضى ليعلن أنه سيتبع السياسة ذاتها مع أي مجموعة ترغب في التعبير عن معاناتها على صفحات صحيفته.

كانت صحيفة "القدس" تقدم تغطية شاملة لنواح متنوعة من الحياة في القدس، إضافة إلى نشر تقارير واردة من المدن المجاورة، كما كانت تنشر، في بعض الأحيان، تقريراً إخبارياً من البرازيل (حيث هاجر بعض الفلسطينيين). لكن رئيس التحرير تمكن في الوقت نفسه من الحفاظ على مستوى أدبي رفيع في صحيفته عن طريق اجتذاب مقالات بقلم مرموقين في ذلك الوقت (بين هؤلاء خليل السكاكيني والشيخ علي الريماوي)، ونشر أشعار مهورية بتواقيع الشعراء أنفسهم، وترجمات لبعض المقالات الأدبية والاجتماعية المختارة من الصحافة الأجنبية. وكان إتقان جورجي عدة لغات يسهل عليه اختيار المقالات وإعادة صوغها باللغة العربية. ويبدو أنه لم يوفق في العثور على الشخص الملائم ليكون رئيس التحرير الدائم للصحيفة، فاضطر إلى تحمل مسؤولية الإدارة بنفسه، مع اعتماده أحياناً على رئيس تحرير موقت لإصدار عدد خاص.

كان جورجي يأمل بتحويل صحيفة "القدس" إلى صحيفة يومية، لكن السلطات العثمانية، على ما يبدو، لم تكن

لتسمح بذلك، إضافة إلى أن رواجها المتواضع لم يترك مجالاً للتوسع المرغوب فيه. فبعض المسؤولين كان يتوقع الحصول على الصحيفة مجاناً وبانتظام، كما أن كثيرين من المشتركين وجدوا الأصدقاء يتكاثرون حولهم لاستعارة الصحيفة بانتظام كي لا يضطروا إلى الاشتراك. والنتيجة، كما يروي الناشر، أن أعداد الصحيفة في عامها الخامس أصبحت أقل مما كانت عليه خلال الأعوام الأربعة السابقة. ومع ذلك استمرت في الصدور فترة لا يستهان بها خلال عامها السادس، سنة 1914، ولا توجد لديّ سجلات تبين تاريخ صدور العدد الأخير من "القدس"، لكن المعروف أنه لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى، غادر جورجى حنانيا القدس وذهب إلى الإسكندرية حيث توفي هناك في سنة 1920.

### مواد مختارة من صحيفة "القدس" في عامها الأول (1908 - 1909)

ظهرت الصحيفة في أربع صفحات، وكانت الأعمدة أو الخطوط أو الرسوم البسيطة أو النقوش تفصل ما بين المواد، كما كان هناك تصميم خاص بالإعلانات التجارية، لكنها لم تكن تضم صوراً. ويبدو أن استخدام الأسلوب المنمق والمبالغة في ألقاب التشريف جاء بناء على رغبة الزبائن آنذاك، وساعد في ذلك ثراء اللغة العربية بالمفردات.

لم تكن التواريخ المذكورة في الصحيفة واضحة في البدء. فبدلاً من التاريخ الواحد، ضم كل عدد ثلاثة تواريخ: التاريخ وفق التقويم اليوليوسى<sup>(1)</sup> (Julian Calendar) (المستخدم في كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية وفي روسيا)، يتلو التاريخ وفق التقويم الغريغوري (Gregorian Calendar) (المستخدم في أغلبية الدول الأخرى)، ومن ثم التاريخ وفق التقويم الهجري. إن التواريخ الواردة كلها في المواد المختارة والمذكورة أدناه، هي وفق التقويم الغريغوري.

### صحيفة "القدس" والشؤون العثمانية

أعطت الصحيفة الأولوية للأخبار المتعلقة بالإمبراطورية العثمانية وحكامها، ولا سيما في أعقاب الإصلاحات الأخيرة.

- (18 أيلول/سبتمبر 1908) كانت إعادة العمل بالدستور مناسبة للاحتفال في كل مكان. (25 أيلول/سبتمبر 1908) نطّم المزيد من الاحتفالات لدى وصول المحافظ الجديد، صبحي بك، إلى القدس، وقد استقبلته الجماهير بالهتافات والمراسم الباذخة، نشرت الصحيفة الخطابات والقصائد المعدة خصيصاً للمناسبة.
- (29 أيلول/سبتمبر 1908) يعلن المقال الرئيسي عن إنشاء جمعية جديدة هي جمعية الإخاء العربية - العثمانية، ويمضي المقال ليشرح فائدة الجمعيات في مساندة الحكومة التي لا تستطيع بمفردها جبر الكسور ومداواة الجروح.
- (11 تشرين الأول/أكتوبر) عرض في جمعية الاتحاد والترقي - فرع القدس، 500 طربوش عثمانى للبيع لمواطنين محليين، وتم إرسال الطرابيش بناء على رغبة زعماء الجمعية في إستنبول.
- (29 كانون الثاني/يناير 1909) تصف الصحيفة مأدبة أقيمت في إستنبول على شرف وفد من الطائفة الأورثوذكسية العربية في القدس، وقد حضر السلطان المأدبة وألقى ممثله الخطاب السلطاني (باللغة التركية)، ونشرت الصحيفة ترجمة للخطاب باللغة العربية، مع الإشارة إلى مقاطعة الخطاب عدة مرات بالتصفيق الهادر مدة طويلة. وتذكر الصحيفة أن السلطان تأثر بردة الفعل هذه على خطابه "فأجهش بالبكاء لفرط سروره"، كما بكى آخرون في القاعة أيضاً لفرط سرورهم.
- بتاريخ 13 نيسان/أبريل 1909، حدث تمرد عسكري آخر ضد السلطان عبد الحميد الثاني، فأقصى عن العرش بفتوى صادرة عن البرلمان، وانتهى بذلك حكمه الذي استمر ثلاثة وثلاثين عاماً. وبعد أسبوعين نصب أخوه محمد الخامس سلطاناً.
- (7 أيار/مايو 1909) ألقى الصحيفة الضوء على الأوضاع التي أحاطت بالتمرد الذي حدث في تلك السنة. ويبدو أن العرف داخل العائلة العثمانية الحاكمة كان يقضي بتعيين أكبر ذكّر حي وارثاً للعرش، لكن السلطان عبد الحميد كان احتجز أخاه الأصغر، محمداً، أسيراً في قصره وروّج شائعات تناولت مرض محمد



جسدياً وعقلياً بغية الاحتفاظ بالعرش لولده. ومع عودة العمل بالدستور، أضحي من الصعب على السلطان الاستمرار في الخداع، وانتهى الأمر بإقصائه من جانب البرلمان الذي لم يكن قد مضى عام على إعادة تأليفه بناء على أمر السلطان نفسه.

- (21 أيار/مايو 1909) تذكر صحيفة "القدس" أن السلطان محمد الخامس لم يكن مختل العقل ولا معتل الصحة، وأن مزيداً من الاحتفالات أقيمت بمناسبة اعتلائه العرش.
- (21 أيار/مايو 1909) اتخذت التدابير الخاصة بإرسال أولاد محمد إلى أوروبا الغربية للدراسة، وتعتبر هذه سابقة بين الأمراء العثمانيين.
- (11 حزيران/يونيو 1909) ولأول مرة أيضاً، أنير قصر السلطان بواسطة التيار الكهربائي.

### صحيفة "القدس" والطوائف الدينية في القدس

قامت الصحيفة أحياناً بتغطية أخبار النزاع القائم بين سلطات الكنيسة الأورثوذكسية اليونانية في القدس وبين الطائفة الأورثوذكسية العربية التي كان كثيرون من أفرادها يتحدرون من المسيحيين الأوائل في القدس، وبالتالي كانوا يعتقدون أن لهم الحق في المشاركة في تقرير الشؤون الخاصة بالأماكن المقدسة في المدينة، وبالمدراس والخدمات الأخرى التي تقدمها الكنيسة. وكان البطريرك والمسؤولون الكنسيون في المراتب العليا يونانيين، ونادراً ما كانوا يتفقون في الرأي مع زعماء الطائفة. وزاد الأمور تعقيداً التزام روسيا الصريح "حماية" مسيحيي الأرض المقدسة (وكان جلهم من الأورثوذكس)، الأمر الذي أدى إلى مواجهات عديدة بين الروس والحكام العثمانيين.

كما غطت الصحيفة الموضوعات التي كانت تحظى باهتمام خاص في الطائفة المسلمة الكبيرة في القدس، فكانت تنشر مقالات تعبر عن الآراء، وأشعاراً ومساهمات أخرى من أفراد تلك الطائفة. وكثيراً ما أعلنت الصحيفة عن توفر نسخ عن خطبة الجمعة في الحرم الشريف، وأن هذه الخطب موجودة في مكتبها بسعر رمزي.

- (12 آب/أغسطس 1908) نشرت الصحيفة على صفحتين من صفحاتها الأربع نقداً لاذعاً بقلم الناشر لمقال نشر في مطبوعة باللغتين العربية واليونانية بقلم أحد المسؤولين في دار البطريركية الأورثوذكسية اليونانية في القدس. ويقول حنانيا في مقاله الناقد إنه اعتاد الامتناع من نشر كل ما من شأنه إبراز النزاعات القائمة بين الكنيسة وبين أفراد الطائفة الأورثوذكسية العربية، لكنه، واعتباراً من تلك اللحظة، يرحب بكل من يرغب في الكتابة عن هذا الموضوع (أو عن أي موضوع خلافي آخر) شرط أن يكون المقال موثقاً ومكتوباً بلغة مهذبة. وأجرى حنانيا تحليلاً للمقال المذكور أشار فيه إلى زلات الترجمة، وإلى الأخطاء الأساسية الفعلية في كل من النسختين العربية واليونانية، كما أشار إلى أن بعض أجزاء المقال باللغة اليونانية أغفل (عن عمد؟) في الترجمة العربية.

- (25 أيلول/سبتمبر 1908) خلال شهر رمضان كانت الصحيفة تنشر أوقات شروق الشمس وغروبها بالساعات والدقائق، إضافة إلى أوقات الصلاة ليستفيد منها الأشخاص الملتزمون بالصلاة والصوم.
- (5 كانون الثاني/يناير 1909) انتخب الطائفة الأورثوذكسية مجلساً مكوناً من 40 عضواً للعمل مع الكنيسة في الشؤون ذات الاهتمام المشترك. وفي الوقت ذاته، طالب أعضاء السنودس [المجمع الكنسي] (بمن فيهم الرهبان ورؤساء الأديرة)، وخلافاً لرغبة الطائفة، باستقالة البطريرك دميانوس على خلفية سوء إدارته لثروة الكنيسة وممتلكاتها.<sup>(2)</sup> استقال دميانوس، لكنه أعيد إلى منصبه بعد تدخل وفد من المدن الفلسطينية الأخرى، مثل: يافا ورام الله واللد.

### الأخبار العالمية

كانت الصحيفة تذكر، بإيجاز، أخبار الدول الأخرى، فكانت تنشر الأخبار التي توزعها الوكالات، مثل: رويترز (Reuters)؛ أجانس ناسيونال (Agence Nationale)؛ هافاس (Havas)؛ مصادر أخرى في الصحافة الأوروبية، كما كانت تنشر التقارير الواردة من أثينا، وبلغراد، وباريس، وإستنبول، وبرلين، وعدن، إلخ. لكن الأخبار المتعلقة بالدول العثمانية كانت تنشر بالتفصيل.

- (18 أيلول/سبتمبر 1908) هاجمت القوات العثمانية المتمردين الأكراد في درسيم (Dersim) وأسرت

- معظم زعمائهم، في حين استسلم الآخرون ودفَعوا الضرائب وأعادوا قطع السلاح والأموال التي كانوا نهبوها. وتظل الأوضاع السائدة في سسمة (Cesme) مدعاة للقلق.
- (5 كانون الثاني/يناير 1909) تطالب النمسا بفرض سيادتها على البوسنة والهرسك، وتذكر موافقة روسيا على ذلك. تُنكر هذه الأخيرة تورطها في الأمر، فيرد العثمانيون على ذلك بمصادرة البضائع النمساوية كلها على أراضي الإمبراطورية العثمانية. ويؤدي تدخل الدول الأوروبية والتعويضات المالية إلى حل النزاع. (29/1/1909) تضم الاتفاقية العثمانية النمساوية عبارات تؤكد حماية حقوق المسلمين (المدنية والدينية والسياسية) في البوسنة والهرسك، إضافة إلى حرية التجارة والسفر.
  - (29 كانون الثاني/يناير 1909) نزاع بين الإمبراطورية العثمانية وبلغاريا، وفتور العلاقات بين إيطاليا والنمسا.
  - (20 نيسان/أبريل 1909) أنباء عن حدوث مجاعة في الجزائر.
  - (16 نيسان/أبريل 1909) تلقى معهد شيكاغو هذا العام منحاً من السيد روكفلر بلغ مجموعها 1.176.000 دولار أميركي.
  - (25 أيار/مايو 1909) ألقى وزير الخارجية البريطاني إدوارد غراي (Edward Gray) خطاباً في البرلمان شجب فيه سباق التسلح، ووصفه بالدمر، كما حث بعض الدول كألمانيا، على إنفاق الأموال المخصصة للسلاح على أمور أكثر جدوى، فالحرب في رأيه سلوك همجي. نشرت الصحيفة النص الكامل للخطاب.
  - (11 حزيران/يونيو 1909) اخترع عالما نفس، ألماني وأميركي، المقياس النفسي الكهربائي، وهو جهاز يستعمل لكشف ما إذا كان الشخص يكذب أم يقول الصدق، ومدى كذبه.

## الأخبار الخفيفة

- كانت أغلبية أعداد صحيفة "القدس" تتضمن في الصفحة الأخيرة مواد من النوع الذي سأورده، ومن دون أي تعليق:
- (25 أيلول/سبتمبر 1908) توصل الأطباء الإنكليز الذين كانوا يجرون دراسات عن طول النساء، إلى نتيجة فحواها أن النساء سيصبحن أطول من الرجال خلال الأعوام المئة المقبلة. وجاء في الأبحاث الأوروبية أيضاً أن الرجال أصبحوا، وسطياً، وخلال الجيل الماضي، أقصر ببوصتين.
  - (25 أيلول/سبتمبر 1908) نحن معتادون هنا على التأمين على بيوتنا ضد الحريق، ولم يدر في خلدنا أن نؤمن على بيوتنا ضد بق الفراش، لكن هذا الأمر شائع حالياً في سويسرا.
  - (11 تشرين الأول/أكتوبر 1908) أمس، كان عيد ميلاد الملك إدوارد السابع ملك إنكلترا، وقد زار وفد خاص الفنصلية البريطانية لتقديم التهاني تعبيراً عن الصداقة التي تربط إنكلترا بالحكومة العثمانية الجديدة، واعترافاً بالتقدير لدعم إنكلترا لهذه الحكومة، وألقى أحد أفراد الوفد خطاباً باللغة الفرنسية (نشرت الصحيفة ترجمة للخطاب باللغة العربية).
  - (9 نيسان/أبريل 1909)، كاد المقعد الذي جلس عليه تافت (Taft)، رئيس جمهورية الولايات المتحدة، ينهار تحت وطأة وزنه البالغ 240 باونداً. وجرى طلب مقعد جديد أكثر متانة ليجلس عليه الرئيس.
  - (20 نيسان/أبريل 1909) تدرس السلطات المسؤولة في أوغوستا (Augusta)، الولايات المتحدة، تطبيق قانون جديد يدفع بموجبه الرجل الأعزب الذي يتجاوز عمره 30 عاماً ضريبة سنوية إضافية، وتستخدم هذه الضرائب لدفع رواتب سنوية للعازبات اللواتي تجاوزن الأربعين من العمر. شرط أن يُثبت الرجل أنه رُفص في ثلاثة طلبات للزواج على الأقل، وأن تثبت المرأة أنها لم تتلق طلباً ملائماً للزواج.
  - (7 أيار/مايو 1909) بتاريخ 1 نيسان/أبريل، أوردت صحيفة في بيتسبورغ (Pittsburgh) (بنسلفانيا، الولايات المتحدة) خبراً فحواه أن اليابانيين شنوا هجوماً على سان فرانسيسكو دمروا فيه الأسطول الأميركي وأجزاء كبيرة من المدينة. وتدفقت الجموع إلى مكاتب الصحيفة ليكتشف الناس لاحقاً أن الخبر كان مجرد كذبة نيسان.

## القضايا المحلية والاجتماعية

كانت الإعلانات التي تنشر في الصحيفة للإعلام عن الزيجات والوفيات، وعن وصول أو سفر شخصيات اجتماعية مرموقة، وعن الأخبار الشخصية من هذا النوع، مرفقة دائماً بعبارات التهنية أو المواساة من جانب رئيس التحرير. كما كانت تنشر إعلانات عن بيع آلات موسيقية وأثاث، وأموراً من هذا القبيل، إضافة إلى مواد أخرى:

- (11 تشرين الأول/أكتوبر 1908) نشر عنوان جمعية مدمني الكحول المجهولين في القدس. وكانت الجمعية تأسست في بريطانيا في سنة 1900.
- (11 تشرين الأول/أكتوبر 1908) نشر إعلان عن نوع جديد من المرافق الترفيهية يدعى "سينماتوغراف" (الصور المتحركة)، كما نشر البرنامج الأسبوعي للأفلام التي ستعرض، وهي أفلام متعددة الأنواع تضم الدراما والكوميديا والأفلام الوثائقية، إلخ. يعاد العرض الذي يستمر ساعتين كل مساء عدا يوم الجمعة، ويُقدّم عرضان يومي السبت والأحد. يتغير برنامج العرض كل أسبوع.
- (1 أيار/مايو 1909) سيدة باريسية تعرض إعطاء دروس باللغة الفرنسية. (11 حزيران/يونيو 1909) صفوف مسائية لتعلم اللغة التركية متوفرة في أماكن متنوعة للناطقين بالعربية والعبرية. (29 حزيران/يونيو 1909) إعطاء دروس في اللغتين العربية والإنكليزية عن طريق الصحيفة.
- (4 أيلول/سبتمبر 1909) من بلدية القدس: على جميع ملاك العربات وسائقها، الحصول على رخصة لتشغيلها. ويجب أن تُثبّت على كل عربة لوحة تبين رقم الرخصة. وتُمنح التصاريح خلال 30 يوماً.
- (6 تشرين الثاني/نوفمبر 1909) في إشارة إلى تقرير يقول إن الكاثوليك في بيت لحم يرفضون تعميم أولادهم على أيدي رجال الدين المحليين، وإنهم بعثوا إلى بطريك اللاتين في القدس يطلبون منه إرسال رجل دين خاص لهذا الغرض، يكتب رئيس التحرير ما يلي:  
متى كنا نحني الرؤوس أمام الأجانب؟ إلى متى يجب الاعتماد عليهم للحصول على حاجتنا؟ هل كتب لنا مذ ولدنا أن نكون تحت وصاية الأجانب؟ وهل كتب للأجانب أن يتحكموا فينا دائماً مادياً وثقافياً وروحياً؟ ألم يحن الوقت بعد لنكون رجالاً يسكنون بمقاليدهم شؤونهم وحياتهم؟ في الماضي كنا فقراء محتاجين إلى من يساعدنا. في الماضي كنا أسرى براثن وحش كاسر، وحش حكامنا السابقين الظالمين، وهو ما دفعنا إلى اللجوء إلى حماية الأجانب.. أليس من واجبنا أن نعيش مستقلين؟ ألا يتعين علينا السعي لجعل مدارسنا ومشافينا وطنية بالكامل؟ إذا لم نفعل ذلك، فلن ننجح ولن نتطور ونزدهر، بل سنبقى إلى الأبد نرزع تحت نير الهيمنة الأجنبية.
- (30 تموز/يوليو 1909) يجري إنشاء محطات للتلفراف في كل مكان في البلد لأول مرة.
- (3 آب/أغسطس 1909) مقال بقلم "م" (اسم مستعار) يؤنب أولئك الذين يعززون إلى اليهود امتلاك نوايا أنانية تجاه فلسطين. فهم، بالنسبة إلى كاتب المقال، لا ينوون الاستئثار بالبلد، بل إنهم جاؤوا إلى فلسطين لتعميرها وتطويرها والعيش مع سكانها، ولهذا علينا معاملتهم كإخوة والترحيب بهم. ■

## الهوامش

(\*) حفيد جورج حنانيا. نشأت في القدس، وتعيش حالياً في الخارج بعد تقاعدها من العمل الأكاديمي.

ترجمة: مهى بحبوح.

(\*) تاريخياً، ظهرت أول جريدة في فلسطين سنة 1876، وهي جريدة "القدس الشريف" التي كانت تصدرها الحكومة العثمانية شهرياً. ثم ظهرت في السنة نفسها جريدة "الغزال" وهي رسمية وشهرية أيضاً. وتوالى بعدها صدور "باكورة جبل صهيون" في سنة 1906 (شهرية)، و"الترقي" في سنة 1907 (نصف شهرية)، و"الأصمعي" في سنة 1908 (نصف شهرية)، و"الأحلام" (1908). ولعل جريدة "القدس" هي أول جريدة في

فلسطين تصدر مرتين في الأسبوع (أنظر: يوسف قزما الخوري، "الصحافة العربية في فلسطين"، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1976).

(1) التقويم اليوليوسي، الذي بدأ العمل به في أثناء حكم يوليوس قيصر، كان مستخدماً عالمياً حتى سنة 1582، عندما قدم البابا غريغوري الثامن تقويماً جديداً لتصحيح الاختلاف بين طول السنة في التقويم اليوليوسي (365.25 يوماً) والطول الفعلي للسنة الشمسية (365.2424 يوماً). وبحلول سنة 1908، كانت أغلبية دول العالم تبنت التقويم الغريغوري، لكن تركيا لم تبدأ العمل به إلا في سنة 1927، بينما تبنته روسيا في سنة 1918. وللآن، لا تزال الكنيسة الروسية والعديد من الكنائس الأورثوذكسية الأخرى تلتزم تواريخ التقويم اليوليوسي التي تتخلف عن تواريخ التقويم الغريغوري بثلاثة عشر يوماً.

(2) هذا الادعاء بسوء إدارة البطريك الأورثوذكسي لأملك الطائفة في مطلع القرن العشرين يذكرنا بالآزمة الحالية الأكثر خطراً في القدس، عندما شعر السكان العرب في القدس بالصدمة لدى سماعهم أن البطريكية الأورثوذكسية باعت، أو سهلت بيع، ملكية مهمة تقع قرب باب الخليل (باب يافا) إلى الإسرائيليين. إن "سوء الإدارة" هذا تحديداً، والذي يساعد الحكومة الإسرائيلية في تنفيذ مخطتها بمحاصرة القدس وفصل الجزء العربي من المدينة عن باقي المناطق الفلسطينية، يؤدي إلى نتائج خطيرة. وقد تمكن السكان العرب من إجبار البطريكية على طرد البطريك واستبداله، لكن من غير المؤكد أن يتمكن البطريك الجديد من إلغاء صفقات سلفه.

### المصادر

- دياب، سهير ووليد خليف (إعداد). "مقتطفات من الصحف الفلسطينية 1876 - 1948". الناصرة: قسم الثقافة والفنون/وزارة العلوم والفنون، 1995.
- سليمان، محمد. "تاريخ الصحافة الفلسطينية (1876 - 1918)". قبرص: الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، 1987.
- هيئة الموسوعة الفلسطينية. "الموسوعة الفلسطينية - القسم العام". دمشق، 1984. المجلد 2، ص 97 - 98: المجلد 3، ص 8.
- يهوشوع، يعقوب. "تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني: 1908 - 1918". القدس: مطبعة المعارف، 1974.
- The Palestinian National Information Centre, "The History of Press in Palestine", www.pni.gov.ps.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)